المسار البلاغي الجديد/ التداوليات المدمجة.

تمهيد:

مرت البلاغة الغربية في مسارها المعرفي عبر ثلاث محطات رئيسية؛ بلاغة البرهان والمنطق في حجاجيات أرسطو والمناطقة، ومحطة الحجاج البلاغي مع بيرلمان وتيتكاه، ومرحلة التداوليات في الحجاج اللساني التداولي مع ديكرو وأونكسومبر .

وقد أسهم الدرس الحجاجي في المحطة الثالثة في ترسيخ مسار هام في التداوليات، ذلك أنه حجاج واقع في اللغة من جهة التداول، كما رأى هذا المسار أن اللغة بلاغة تحمل طاقات وقدرات عند استعمالها في الخطابات المختلفة، وعلى هذا الأساس كان مشروع التداوليات المدمجة مشروعا مهما في مقاربة اللغة من حيث استعمالها في سياقات مختلفة

أ/ التداوليات المدمجة:

يقوم مشروع التداوليات المدمجة عند ديكرو وأونكسومبر على محاولة الارتقاء بالتحليل اللساني اللغوي بمستوياته إلى مستوى جامع هو المستوى التداولي، فقد ظل المستوى التداولي مهملا إلى أجل غير بعيد إنه سلة مهملات اللسانيات، ويرى هذا المشروع أن الجانب التداولي مدمج في الجانب الدلالي ، ومن ثمة وجب الاكتفاء في التحليل بالمستوى التركيبي والمستوى التداولي فقط عوض المستوى التركيبي والدلالي والتداولي، أي مساءلة اللغة والخطاب حين الاستعمال فقط، اختبار اللغة أثناء السياقات المختلفة يعطينا بعدا جامعا لمقاصدها ومعانيها الحقيقية، مثل جملة" النافذة مغلقة" جملة تحمل في دلالة بيان حالة ما، أما إذا قيلت في سياق محدد(المستوى التداولي) فهي تعني وتدل(المستوى الدلالي) على ضرورة فتح

النافذة بسبب الحرارة. أو الشؤال مثلا عن الساعة: كم الساعة؟ فهي دلاليا تعني السؤال عن الوقت، أما إذا قيلت في سياق حضور الطالب متأخرا فهي تدل على التوبيخ وعدم الرضى.

وقد قام هذا المشروع على تطوير عديد الأفكار التي سبقت ديكرو وأونكسومبر في هذا المجال منها: أفكار إميل بنفنيست في مجال لسانيات التلفظ، ونظرية أفعال الكلام عند أوستين وتلميذه سيرل،وحوارية ميخائيل باختين في بوليفانية السرد، ثم أخذ هذا المشروع البعد الحجاجي البلاغي من خلال إيلاء أهمية للملفوظ الخطابي في حال الاستعمال، وهنا رأى ديكرو أننا عندما نصف خطابا ما بإنه خطاب حجاجي فلأنه يقوم على ملفوظين أو أكثر يقوم أحدهما بتعزيز وإسناد الآخر أو يقوم أحدهما بمعارضة الآخر في سبيل نتيجة حتمية ما. أي أن الجملة الحجاجية جملة مترابطة في كلماتها لا تأتي دون روابط منطقية. كقولنا مثلا سطيف مدينة جميلة، فكلمة سطيف من حيث هي حجة وليست حجاج، أسندناها بكلمة مدينة جميلة من حيث هي حجة مساندة، أو يمكننا إسنادها بحجة معارضة كقولنا سطيف مدينة ليست جميلة أو سطيف مدينة بعيدة، في سبيل الوصول إلى نتيجة مفادها أننا سنزورها أو أننا لن نزورها.

ووتشكل الجملة الحجاجية من حجة مساندة أو حجة معارضة للحجة، يجمع بينها رابط حجاجي، ووظيفة هذه الروابط هو إضمار معان ودلالات محددة، وهي ذات الدلالات التي تحدث عنها النحاة العرب القدامى فالفاء مثلا تفيد الربط والتقيب أما ثم فهي تفيد الربط والتراخي، فجملة جاء الأستاذ ثم الطالب ليست هي جاء الأستاذ والطالب، كما تتشكل الجملة الحجاجية أيضا من العوامل الحجاجية وهي العوامل التي تقوم بدعم المعاني وترتيب

الأولويات الخطابية، مثل جمل العدد أو الحصر أو القصر أو غيرها، مثلا سأراجع قليلا، حصرت المراجعة في القلة، ولاتأكل إلا بعد الغسل، قصرت الأكل في الغسل. وقولنا : تشير الساعة للثامنة تماما.ولاتشير الساعة إلا للثامنة، فكلها عوامل حجاجية تضعف المعنى أو تقويه.

كما يشكل تراتب الجمل الحجاجية وحدة حجاجية، تساهم هذه الوحدة الحجاجية في بناء سلمية حجاجية، يشترط فيها فيها احتواء الحجة الكبرى للحجة الصغرى، وترتيب هذه الحجج ترتيبا منطقيا تصاعديا، وتنخرط هذه الوحدات الحجاجية ضمن فئة حجاجية تحمل دلالات معينة استعانة بالوسائل الحجاجية المختلفة.

إن ترابط الأقوال ترابط حجاجي وموضوع الحِجَاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية، فالوظيفة الحجاجية قائمة على البحث في ترابط الأقوال والقوة الحجاجية، وعليه فالحجاج وظيفة من أهم وظائف اللغة، يتقاطع مع وظيفة التواصل بوصفها من وظائفها كذلك ، ومن ثمة فالحجاج هو التواصل الفعال والناجع، باعتباره يستطيع أن يحدث في الأطراف المتحاججة ضربا من التغيير. وعلى هذا « فإن التوجيه هو الذي يشرع البحث في الترابطات الحجاجية الممكنة، لأن مسوغاتها موجودة في البنية اللغوية للأقوال وليست رهينة المحتوى الخبري للقول، ولا رهينة لأي بنية استدلالية صناعية من خارج نظام اللغة [...] لذلك فإن التداولية المدمجة تبحث في القوانين التي تحكم الخطاب داخليًّا لاكتشاف منطق اللغة. «

بناء على ما سبق، يتضح جليا مسعى اكتشاف منطق اللغة عبر قوانين الخطاب ،وهذا أكثر ما يميز أعمال أوزوالد ديكرو وجون كلود أنسكومبر، فهما يرفضان: «التصور القائم على

الفصل بين الدلالة وموضوعها معنى الجملة، والتداولية وموضوعها استعمال الجملة في المقام، من جهة والسعي إلى سبر كل ما له صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال التداولي المحتمل من جهة أخرى. فيكون مجال البحث عندهما هو الجزء التداولي المدمج في الدلالة ويكون موضوع البحث هو بيان الدلالة التداولية (لا الخبرية الوصفية) المسجلة في أبنية اللغة وتوضيح شروط استعمالها الممكن» .